علوبه

الإسلام والديمقراطية

321.82
A47iA
DE 4'58
J. Lib.
JAFET LIB.
4 JAN 1993

321.82
A47aA
A 6
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

محمد علي علوبة باشا

الإسلام والديمقراطية

مكتبة العرب

« طبعته ونشرته لجنة البيان العربي بإذن سعادة المؤلف »

١٣٦٩ - ١٩٥٠

مطبعة احمد مختار بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣

Cat. 181 Fol. 53

WAYNE STATE UNIVERSITY
LIBRARY
DETROIT

العـــدل أبو الوطنية وحارسها .

* * *

ثروة المرء تهجره بموته . أما شرفه فيؤنسه فى قبره .

* * *

يقول النـاس : إن الاستقلال حق طبيعى للأمم

ويقول التاريخ : إنه جـــدارة وجهاد .

محمد على علوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

طلب إلى بعض الأصدقاء فى الباكستان — أذكر منهم حضرة الفاضل الأستاذ حليم مدير جامعة السند — أن أكتب كلمة فى موضوع الديمقراطية فى الاسلام .

ولما كانت الباكستان تعمل الآن على وضع دستورها وقوانينها على المبادىء الديمقراطية التى تتفق والقواعد الاسلامية وروح الدين الحنيف، كما أعلن رئيس مجلس وزرائها ، وأقر مجلسها التأسيسى. ولما كنت مشغوفا بأن أرى الباكستان دولة قوية ، رفيعة الجانب، سليمة التشريع والقوانين فقد رأيت استجابة لأصدقائى ، وإرضاء لعاطفتى نحو الباكستان العزيزة أن أطرق هذا الموضوع ، مساهمة منى متواضعة فى خدمة هذه الأمة العظيمة .

والله ولى التوفيق والسداد .

ربيع الآخر ١٣٦٩

فبراير ١٩٥٠

محمد على علوبة

سفير مصر بالباكستان

الإسلام والديمقراطية

القسم الأول

ما هي الديمقراطية ؟

يتحدث الناس كثيراً عن الديمقراطية ، وازداد التحدث عنها فى الأيام الأخيرة . فتحدثوا عنها بعد الحرب العالمية الأولى . وأثناء انعقاد عصبة الأمم ، ثم تحدثوا عنها بعد هذه الحرب الأخيرة ، وأثناء قيام جامعة الأمم المتحدة . ويتغنى بها اليوم كل من الأقوياء والضعفاء .

وبدأ القوم عندنا فى مصر يذكرون هذه الكلمة فى أوائل القرن الحاضر . وهى ليست عربية ، ولا شرقية . فما معناها ؟ وما مرماها ؟

وبما أنها قد أصبحت ثابتة فى صلب اللغات العربية والشرقية فقد بدا لى أن أتحدث عنها . وعما يسميه الناس بالديمقراطية وعن مدلولها ، وعن أى الأوضاع التى ينبغى أن نفهمها عليها ، ونسعى بها إلى تحقيقها .

ذلك يضطرنى إلى البحث عنها من يوم نشأتها ، وعن أدوار

التطور التى مرت بها ، وعما يجب أن يكون عليه معناها حتى نتفق جميعا نحن الشرقيين على الأهداف التى نصبو إليها — من ديمقراطية مفهومة الأوضاع محدودة المعنى .

ينبئنا التاريخ بأن قبائل إغريقية (يونانية) كانت تقيم فى الجهة المعروفة الآن بآسيا الصغرى . ثم رحلت بعد حين إلى شبه الجزيرة المعروفة الآن ببلاد اليونان واستقرت فيها . فاتخذت كل قبيلة مكانا خاصا بها ينفصل عن غيره بجبال ووهاد . فلم تتمكن هذه القبائل من أن يتصل بعضها ببعض اتصالا سهلا ممهدا إلا بواسطة البحر المتوسط . وأما المفاوز فقد كان من الصعب السير فيها فى تلك الأوقات . فكانت كل قبيلة تعتز بنفسها . وتعمل مستقلة عن غيرها .

وكان من نتائج هذا الوضع أن تكونت مدن عدة فى بلاد الأغريق مستقل بعضها عن بعض . وكان يسمى كل منها فى ذلك الحين باسم « بوليس » أى « مدينة » . ولقد درجنا نحن الآن على تسمية بعض مدننا فى الشرق وفى الغرب بهذا الاسم . فمن ذلك « هيليو بوليس » القريبة من القاهرة وهى « مصر الجديدة » باللغة العربية ومعناها باليونانية « مدينة الشمس » وقد كان هذا الاسم قاصرا على « عين شمس » المعروفة ، وكانت فى مصر أسماء عدة أيام حكم الأغريق والبطالسة تنتهى بكلمة « بوليس » ويوجد

الآن فى الولايات المتحدة بأمريكا أسماء إغريقية من هذا القبيل تنتهى بكلمة « بوليس » .

ولما كانت كل مدينـــة مستقلة عن غيرها فى بلاد الأغريق . . وكان تعداد كل مدينة فى ذلك الحين قليلا ، لا يكاد يتجاوز الفا وخمسمائة نسمة يعرف بعضهم بعضا . رأى سكان تلك المدن — والانسان مدنى بالطبع — أن يتعاونوا على إدارتها . والتفكير فى الادارة وأساليب الحكم يختلف باختلاف عقلية المواطنين فى كل مدينة . ولذا كانت أحوال الادارة تتغير بتغيير القائمين بالأمر فيها . وكان الرئيس هو الذى يحكم المدينة . والشعب هو الذى يختاره .

وكانت الطريقة المثلى عندهم أن يجتمع أهل المدينة الراشدون وعددهم ضئيل — فى صعيد واحد . ويعينوا لمدة سنة مثلا أولئك الذين يجب عليهم أن يقوموا بادارة الحكم فى المدينة يختارون القضاة . ورجال الأمن . وغيرهم ممن تحتاج إليهم الادارة . فاذا انقضى العام اجتمعوا ثانية ليعيدوا النظر فى اختيار من يكون صالحا لادارة البلاد .

وهذا يدل على أن إدارة الحكم فى البلاد كانت نتيجة لانتخاب مباشر من الشعب كله وأن السلطة كانت مركزة فى أيدى الشعب يختار من يشاء فى كل عام .

وهذا هو الحكم الديمقراطى فى نظرهم .

والديمقراطية كلمة مركبة من كلمتين « ديموس » ومعناها الشعب

و « كراتوس » ومعناها سلطة ، فكانت سلطة الشعب هى المحددة فى تلك العصور لمن سيتولون ادارة البلاد .

ولم يمنع هذا النوع من الحكم أن توجد أنواع أخرى منه كأن يحكم بعض المدن رجل واحد أو رجال أقوياء يتعاونون معا فى الادارة . ونجم عن هـــذا كله أنواع من الدساتير لكل مدينة . فوجـــد فى اليونان رجال أقوياء مشرعون نذكر منهم « ليكورجوس » الذى وضع تشريعا فى القرن التاسع قبل الميلاد لمدينة « اسبارطة » و « صولون » المشرع العظيم الذى وضع نظاما لمدينة « أثينا » فى القرن السابع والسادس قبل الميلاد .

وكثرت الدساتير وتعددت بتعدد المدن . وقامت مشاكل وفتن وحروب ، وظهر الفلاسفة لخدمة وطنهم وأمتهم . وكان من بينهم سقراط الذى اكتفى بالنقد والمحاورة ، فلم يدون شيئا من فلسفته . وتلميذه أفلاطون فى القرن الخامس والرابع قبل الميلاد ، ذلك الذى ابتكر طرقا عملية لخدمة بلاده . ووضع لذلك كتبا منهـا « الجمهورية » وكتاب « القوانين » . وكانت أفكاره ترمى فى جملتها إلى حصر إدارة البلاد فى أيدى الفلاسفة لأنهم فى نظره أقدر من غيرهم على حسن الادارة ، ووضع فى جمهوريته مشروعه المعروف . وهو أن يؤخذ الأطفال جميعا ويربوا على نسق متجانس من التربية . ويدربوا من أول الأمر على أن يكونوا أبناء الوطن لا أبناء آبائهم .

ثم أتى « أرسطاطاليس » تلميذ أفلاطون فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ونظر إلى الدساتير الأغريقية نظرة العالم المدقق والخبير العملى الذى يخضع للعقل والمنطق والواقع معا — نظر إليها فوجدها كثيرة متعددة . لكنه رأى أنها كلها يمكن أن ترجع الى ستة أوضاع . وإدارة الحكم فى نظره لايمكن أن تعدو هذه الأوضاع الستة . غير أن هذه الأوضاع ليست كلها صالحة بل بعضها صالح وبعضها خبيث طالح .

فالصالح منها ثلاثة ، والطالح ثلاثة .

فأول الأنواع الصالحة « حكم الفرد » . يعنى الفرد الصالح ، سواء أكان ملكا أم غيره . وهو ذلك الفرد الذى يراقب ضميره ، ويستشير أولى الرأى فى قومه ، ثم يصدر قراراته وأحكامه ، بعد أن يتحرى وجه الحق ، والعدل طبق ما تقتضيه مصلحة البلاد .

ويقابل حكم الفرد الصالح « حكم الطاغية » وهو الذى لا يرعى فى قومه إلاً ولا ذمة . ويرهق شعبه بنزعاته الشيطانية وبقوته وجبروته . ويستنزف أمواله لمصلحة نفسه ومصلحة أهله وعشيرته وذلك هو النوع الطالح ، الذى يقابل حكم الفرد الصالح .

والنوع الثانى من الحكم الصالح هو الحكم « الأرستقراطى » وليس ذلك يعنى حكم الأغنياء بل حكم الأكفاء . وهم أولئك النبلاء الشرفاء الذين يتعاونون على إدارة الحكم والذود عن الوطن بعقولهم وأموالهم . فيحكمونه حكما صالحا . ويعملون لخيره

ورشاده ويقومون بالانفاق على الجيش فى كل مايحتاج إليه من مال وعتاد ، ولا يبتغون سوى مصلحة الشعب ورفاهيته .

ويقابل ذلك النوع من الحكم حكم طالح وهو مايسميه ارسطاليس « أوليجاركى » أى حكم الأقلية التى تصل إلى الحكم دون أى يكون لها مزايا الحكم الصالح النبيل. فقد يصل مثلا فريق من التجار — والأغريق كانوا تجارا بالمعنى الصحيح — أو من كبار المزارعين، أو من النوعين ، إلى الثراء ويغتصبون الحكم ليعملوا ما فيه الخير لأنفسهم لا للشعب .

وأما الحكم الصالح الثالث وهو الذى يفضله أرسطو على سائر الأنواع فهو الحكم « الديمقراطى » أى الحكم الذى تكون السلطة فيه للشعب ، أو كما نعبر عنه نحن فى الدستور المصرى « الشعب مصدر السلطات » . وذلك أن الشعب هو الذى يقرر طريقة الحكم ويعين من يلون الحكومة . ففى حالة المدن الصغيرة يجتمع الراشدون جميعاً كما قلنا لاختيار رجال الحكم ، وتعيين أسلوب الحكومة . وإذا نما الشعب وكبر كان له أن يختار وكلاء عنه أى نوابا ليختاروا رجال الحكم ويعينوا أسلوب الادارة

ويقابل هذا الحكم الصالح حكم آخر طالح ، لايقل خطرا عن الحكمين الطالحين الأولين ، إن لم يكن أكثر خطرا منهما ، وهو الحكم « الديماجوجى » أى حكم العامة والرعاع . وذلك أن يقوم

مهرج خداع ، يفسد عقيدة الأمة ، ويغرر بها ، فتنتخبه طواعية واختيارا . وهو فى الواقع طاغية باسم الشعب . والذين ينتخبون هذا الطاغية فى العادة هم العامة — أكثر الجماعة عددا . وهم أولئك الذين لايفهمون واجبهم نحو وطنهم ومعهم قلة ، ممن لايريدون أن يفهموا هذا الواجب ، لمآرب شخصية يريدونها من وراء ذلك التعامى عن الحق الواضح .

ويبدو لى أن أرسطاليس يريد أن تكون مصلحة البلاد فى أيدى حكومة نسلمت السلطة ، نتيجة لرأى عام محترم ونزيه ، لم يغرر به أحد . فاذا انحرفت النزاهة فى الشعب ، أو خيم الجهل على عقول الشعب ، فانه لا يعتبر رأيه رأيا عاما محترما ، ويقول : إن نتيجة الاستفتاء لا بد أن تكون فى هذه الحالة وبالا على الجماعة . فارسطاليس يرى اذن وجوب احترام ارادة الشعب النزيه المفكر ، لتكون خير موجه لخير حكيم . وهذا النوع من الحكم هو الذى نعرفه الآن باسم الديمقراطية .

* * *

بيد أنه يحق لنا الآن أن نتساءل : هل ديمقراطية الأغريق التى حبذها أرسطاليس هذه خالية من الشوائب والعيوب ؟

كلا . فديمقراطية الأغريق جميعا تحمل بعض العيوب التى لا يصح أن نتغاضى عنها .

فأولى هذه الشوائب : أن أرسطاليس كغيره من الاغريق يؤيد الاسترقاق ويحبذه ، فليس الناس لديه سواسية فى الحقوق والواجبات . بل هم متمايزون . وينبغى فى نظره أن يكون فى البلد أحرار وعبيد . وهؤلاء العبيد غير جديرين بالمساهمة فى إدارة الحكم ، وفى انتخاب من يلى الأمر ، لأنهم بطبيعتهم كالحيوانات ، مهمتهم خدمة الأحرار يزرعون ويحصدون ، ويعملون لمن يملكونهم وليس لهم أى حق من حقوق المواطنين .

ويذهب أرسطاليس أبعد من ذلك فيقول : إن من الخير للعبد نفسه أن يبقى رقيقا ، حيث وضعه الله ، أو وضعته الطبيعة ، ليخدم الوطن كما يخدمه الحيوان الأعجم ، سواء بسواء .

والشائبة الثانية : أن ديمقراطيته لا تجعل للمرأة حقاً غير خدمة الرجل والتبعية له . فعليها أن تقبع فى عقر دارها تؤدى الواجبات الزوجية ، وتقوم بعمل المنزل والحقن وملاحظة الأولاد . فحياتها حياة آلية مرسومة ، لا تتعداها أو تخرج عنها ، فتفكر فى المساواة بالرجل ، وفى ادارة دفة الحكم معه . وهى بالاختصار متاع الانسان .

والعيب الثالث : أنها ديمقراطية اعتداء وتوسع وحروب ، فلا ترعى سوى حقوق المواطنين من اليونانيين الأحرار ، وهى لهذا تحبذ الفتح والتحكم والاستعمار ، وقد أدت فى النهاية إلى حروب كثيرة وإلى الاسترقاق .

فالديمقراطية الأغريقية تتلخص اذن فى أنها حرية مكفولة للأحرار اليونانيين دون غيرهم . فهى ديمقراطية محلية وليست ديمقراطية انسانية بالمعنى الذى يجب أن نفهمها به اليوم .

* * *

مرت الأيام والسنون بعد ذلك ، وحلت الرومانية الأغريقية ، وتداولت فيها أنواع الحكم الستة التى نوهنا عنها . فكان فيها حكم الفرد تارة ، وحكم الطاغية تارة أخرى . وكان فيها مرة حكم الارستقراطية ، ومرة أخرى حكم الأوليجاركية وكان فيها أحيانا حكم الديمقراطية ، وأحيانا حكم الديماجوجية .

تعاقبت هذه الأنواع من الحكم ، إلى أن طغى عليها الفساد فتحللت ، وأصبحت نهبا ينقصها المعتدون من أطرافها الشمالية والغربية والفاتحون من الجنوبية والشرقية فتبددت واندثرت .

وان الذى ينظر إلى هذا النحو من التدهور يتضح له أن الحكم الصالح لايرتكز فى الحقيقة على النظم ، كما يرتكز على الأخلاق السامية ، والنزاهة الوطنية الصحيحة . فالأمم تقوم على قوة الخلق أكثر مما تقوم على قوة النظم .

* * *

وبعد هذه الفترات الطويلة أتى على الأمم الأوربية حين من الدهر طويل ، اشتدت فيه المظالم ، وعمت المفاسد ، وكثر الغاصبون

وقاست الشعوب أهوالا من الظلم والاستبداد . فكان كل من قدر على بلد اغتصبه ، وسخر أمه للذاته ومطامعه .

فكانت الاقطاعيات وكانت الملوك وأشباه الملوك والأمراء . ولم تر الشعوب متنفسا فى ذلك العصر المظلم سوى الموت والفقر والجهل والاعتداءات .

فاندثرت حضارات وضـــاع التراث الضخم الذى جاء به المصلحون فى الأجيال الماضية . الى ان أتى عصر قام فيه فريق من المصلحين بكتابات وأفكار وخطابات : وعرضوا بحياتهم فى سبيل رقى الانسانية . كان من هؤلاء المصلحين فلاسفة . وكان منهم شعراء وكتاب . وكان منهم مشرعون .

ولقد قامت فى الأجيال الماضية هيئة فى انجلترا تدعو ضد الظلم والاستبداد ، كان قوامها النبلاء وأدت إلى مايسمونه « بالميثاق الأكبر » عام ١٢١٥ بعد الميلاد ، ثم إلى قانون أكسفورد عام ١٢٥٨ فكان ذلك الميثاق الأكبر أساسا لنظام الحرية السياسية المتبع الآن فى انجلترا .

ثم قام المصلحون الأحرار فى أجيال متعاقبة ، يهدون الشعب إلى الحرية وإلى الشرائع الصحيحة أمثال « مونتسيكو » الفرنسى فى كتابه « روح القوانين » و « جان جاك روسو » الفرنسى فى كتابة « العقد الاجتماعى » وغيرهما من رجال السياسة والاقتصاد والاجتماع ، إلى أن قامت الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ بعد

الميلاد ،مطالبة بالحرية والاخاء والمساواة، ثم تبعتها ثورات أخرى فى أوربا ، تطالب أيضاً بالحرية ، ونشر لواء العدل بين الناس .

على أن ذلك لم يمنع من وجود هزات رجعية فى أوربا ، قبل الثورة ، الفرنسية وبعدها . كان من رجالها أمثال « ماكيافلى » الايطالى الذى ظهر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بمؤلفات منها « كتاب الأمير » يفسد فيه مادرج عليه الانسان من مكارم الأخلاق . ويحبذ طغيان الحاكم وظلمه والختل والأثرة فى الادارة ،كما ظهر نوع آخر فى القرون الأخيرة من أمثال «نيتشى» الفيلسوف الألمانى ، الذى ظهر فى القرن التاسع عشر ، ينادى بالتفرقة العنصرية ،وأن بعض العناصر يجب أن يسود على البعض.

لكن الحركات فى جملتها كانت سعياوراء تحقيق الديمقراطية ، وظل الناس يسعون وراء تحقيقها ولكن بالمعنى المحلى الضيق الذى يفهمونه . إلى أن أتت الحرب العالمية الأولى فاشتد سعى الناس وراء تحقيق الديمقراطية العامة وزاد تحدثهم عنها . ووجدت بعد الحرب عدة حلول برزمنها شىء اسمه : السلام العالمى .كان من دعاته المسيو « بريان » رئيس الوزراء الفرنسى الذى قام بمشروع « كيلوج بريان » لتحقيق سلام عالمى باتفاق أوربى ، لكنه مالبث أن انهار تحت مطامع الطامعين . كما انهار قبله مشروع الدكتور « ولسون » الذى نادى فيه بحق تقرير المصير .

ثم أتت الحرب العالمية الثانيـــة فرجع الناس إلى فكرة الديمقراطيـــة على النحو الذى ارتآه « بريان » ، وعلى النحو الذى ارتآه من قبل الدكتور « ولسون » فأخذوا يتغنون بالديمقراطية وبالدين . وبارادة الله . وبالعدل الانسانى الشامل . ولـكنهم من سوء الطالع لا يتحدثون عن هذه الأشياء ، ويذكرون الله وأوامره ونواهيه ، إلا أيام المحن والشدائد . فمان وضعت الحرب أوزارها حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من جشع واستعمار ، وحب السيطرة ، وظلم الانسان لأخيه الانسان

* * *

وهنا نريد أن نرجع ثانيـــة إلى تقسيم أرسطاليس لأنواع الحكم ، لنرى : هل مات حقاً ؟ أو أنه لا يزال موجودا فى العالم فنقول : إن أقدم نظام شعبى فى هذه الأيام يحترم ارادة الأمة ، وأقدم نظام ديمقراطى هو النظام الانجليزى . فالبرلمان الانجليزى أقدم برلمان يقوم الآن بيننا . ولـكن هل أخذ النظام البريطانى بنوع واحد من نظم المدن الأغريقية وديمقراطية الأغريق ؟ أو أنه عملى أخذ من جميع النظم ما رآه محققا لمصلحة بلاده ؟

إننا إذا نظرنا الى الديمقراطية الانجليزية نجد أنها أخذت من النظام الصالح الأول لأرسطاليس فكرة حكومة الفرد ، فجعلت لانجلترا ملـكا أو فردا حاكما . وأخذت من نظامه الصالح الثانى

حكم الأرستقراطية فأوجدت مجلس اللوردات ، وأخذت النظام الصالح الثالث وهو الحكم الديمقراطى فأوجدت مجلس العموم .

فكأن النظام البريطانى أخذ الأنواع الثلاثة الصالحة التى ذهب اليها أرسطاليس . ولكنه احتفاظا منه بالديمقراطية الشعبية أعطى السلطة الكبرى لمجلس العموم . وبهذا تمكنت الأمة الانجليزية من أن تحتفظ بتوازن معقول ، فاحتفظت بسلطة الفرد وقداسته . وبمزايا الارستقراطية وهى مراقبة الأكفياء لسلطة العامة ، حتى تكبح جماحها إذا شذت أو تطرفت . وكلما ارتقت وتأكدت من رقى الشعب زادت من سلطة مجلس العموم ، إذ لاخوف عليه حينئذ من التطرف والمفاجآت الضارة .

ولقد شارك انجلترا كثير من البلاد الأجنبية فى عدم الاكتفاء بمجلس واحد ولو لم تكن هناك فكرة ارستقراطية. فجعل كثير منها مصدر الديمقراطية من مجلسين ، يراعى أحدهما الآخر ، حتى لاتصدر قرارات تحت انفعالات نفسية ، أوتأثيرات لا يمكن الرجوع فيها .

فجعل البرلمان من دائرتين مختارتين ، تراقب إحداهما الأخرى وتعاونها — ضمان قوى لتحقيق المصلحة العامة ، وصدور القرارات نتيجة تفكير متزن وهدوء واستقرار .

وهذا يشبه تكوين المحاكم من دائرتين لتراقب العليا الدنيا منهما. ومن الطبيعى أنه اذا كانت الأحكام بين الأفراد تقضى بوجود هيئات متعددة كان الألزم أن تأتى التشريعات العامة نتيجة تفكير هادىء من هيئات متعددة كذلك .

* * *

ولقد قلت عندما تحدثت عن تقسيم أرسطاطاليس : إنه تقسيم منطقى صحيح . ولو أن بعض المؤلفين من أمثال « مونتسيكو » رأى تقسيما آخر وضع فيه « الجمهورية » ، ظنا منه أن الجمهورية هى التى تمثل الحكم الديمقراطى تمثيلا صحيحا . ويخيل إلى أن هؤلاء المفكرين قد أخطئوا . ذلك لأننا نرى اليوم بلاداً تخضع لحكم الفرد — الملك — أكثر ديمقراطيـــة من بعض الجمهوريات . فرئيس جمهورية الولايات المتحـــدة سلطة أقوى من سلطة ملك الانجليز، فالوزراء مسئولون أمامه لا أمام البرلمان ، بخلاف الحال فى انجلترا . فعناصر الديمقراطية متحققة فى الأخيرة أكثر منها فى الأولى . ذلك لأن المهم فى الحكم الديمقراطى أن يكون الشعب بواسطة ممثليه مصدر السلطات . بغض النظر عن أن تكون السلطة العليا ممثلة فى ملك أو فى رئيس جمهورية .

ولست أبالغ هنا إذا قلت: إن البلاد الأوربيـــة الشمالية التى يرأسها أفراد — ملوك — كانجلترا وهولنـــدا والدانمارك

والسويد والنرويج — أكثر بلاد العالم ديمقراطية وأمنا ، وأظهر هدوءا ، وأبعث على رضا الشعب ، وأكثر تقديسا لحريته ، واحتراما لارادته — من جمهوريات كثيرة نراها فى أوربا وفى أمريكا .

هذا وإن استقرار الديمقراطية المحلية ، واستمرارها يهيىء الشعب إلى أن يدرك واجباته ، وإلى أن يرتفع فى تفكيره عن التفكير الذاتى ، والى أن يجعل من أفراد الأمة رقباء بعضهم على بعض ، وإلى أن يشيع بينها العلم والمعرفة ، وتقديس التشريعات الصادرة من برلمان يفهم ما يقول ، ويتحمل مسئولية ما يعمل . وينجم عن هذا التطور والرقى أن تصبح الأمة فى مناعة من الفساد . والرشوة والمحاباة . واستغلال النفوذ . وأن ترقى قدما لا بالعنف والثورات التى تهدم دون أن تبنى . بل بالتطور الهادىء الثابت الصادر من رغبة الشعب الممثل فى برلمانه .

انظر إلى بعض البلاد التى لم تنضج فيها فكرة الديمقراطية المحلية تر أن تطوراتها كانت نتيجة لثورات محلية هدمت ولم تبن شيئا . وانظر إلى بعض البلاد التى نوهت عنها كالسويد والنرويج وهولندا وانجلترا وغيرها تر أن التطور فيها مستمر وأنها قد ارتقت وغيرت نظمها تغييرا تاما ، تبعا لتطور الأحداث وتطور الزمن ، وأن التطور فيها كان لا يقل فى كثير من الأحيان

عن التغييرات التى تحدثها الثورات . إلا انه امتاز فيها بالهدوء وبالسداد ، وإجماع الأمة على النظام والهدوء .

انظر مثلا إلى بلاد السويد والنرويج وقد كانت من قبل بلداً واحدا معروفا باسم « اسكندناوة » ، حين أرادت أن ينفصل بعضها عن بعض ، لاختلاف اللغة والعادات والتقاليد . فاتفقت على التقسيم إلى قسمين : السويد والنرويج . وتم ذلك فى عام ١٩٠٥ وأصبح بذلك كل بلد منهما مملكة مستقلة ، لكل واحدة منهما ملك وبرلمان . وبقى الاثنان أخوين صديقين متجاورين متعاونين . فهل حدث بينهما تقتيل أو تهديد أو تعويق عن الرقى فى مدارج الانسانية والمدنية ؟

هذا درس يجب أن يلتفت إليه الشرق وينتفع به .

* * *

ورجوعا منا إلى أصل الفكرة من التحدث عن المجلسين كمثل صالح فى الديمقراطية نقول : إن هذا النظام معمول به فى مصر أيضا ، وقد كان لى شرف الاشتراك فى وضع دستورها .

فنجد مجلس الشيوخ مكونا من فريقين : فريق تنتخبه الأمة ، وهو ثلاثة أخماسه . وفريق تختاره الحكومة وهو خمساه . وهذا الفريق المعين أثر من آثار الأرستقراطية الصالحة ، التى ذهب اليها أرسطاليس ، وأخذت بها انجلترا . وكانت الضرورة تقضى

بهذا النوع فى مصر لتفشى الأمية فيها ، فكان يخشى من الديماجوجية أن تسود .لذلك أريد اختيار عدد من الشيوخ، ذوى الارستقراطية العلمية والفنية — إذا ما صح لنا أن نستعمل هذا التعبير — لتكون هادية وموجهة من الطريق العلمى والفنى لمجلس الشيوخ، وهى تلك الكفايات الضرورية للأمة الى أن يشيع العلم والفن فى البلاد . وحينئذ يمكن أن يكون الجميع من المنتخبين ، من غير أن تخشى مغبة العاقبة — من وجود مجلس بدون أكفياء .

وإذا كان الانجليز — وهم على درجة عظيمة من الثقافة. ولهم تاريخ فى الديمقراطية مجيد — يرون الحاجة ماسة إلى نوع من الارستقراطية (مجلس اللوردات) لتحفظ التوازن فى البلد — فأولى بمصر أن تكون لها تلك الارستقراطية العلمية والفنية . لتكون هاديا ومرشدا لها فى حياتها الديمقراطية .

* * *

والآن وفى مرحلتنا الأخيرة هذه من الديمقراطية ماذا نرى ؟ هل نراها تقدمت شوطا بعيدا أو أنها لا تزال تتبع ديمقراطية الأغريق التى لا نقرها ؟

هل ثبتت واستقرت ، أو أنها لا تزال تتعثر فى أذيالها ؟ ذلك سؤال أتركه ليجيب عنه من يقرأ و يتدبر ما يلى من الاستفهامات .

هل نحن اليوم فى ديمقراطيات انسانية ، أو أننا لا نزال فى ديمقراطيات محلية ؟ .

هل امتنع الاسترقاق أو أنه لايزال باقيا بين الأمم المتحضرة فى غير صورة من صوره ؟

هل محونا التفاضـــل بين الأجناس والألوان والمذاهب والعناصر ، أو أننا لانزال بعضنا عدو بعض ؟

هل تتعامل الشعوب على قدم المساواة إخوة متحابين ، أو أن الظلم والعسف لايزالان واقعين على ذوى الألوان وبعض الطوائف ؟.

هل قام الأقوياء بمساعدة الضعفاء ، وبالنهوض بهم فى سبيل الحضارة والمدنية ، أو أن الفتح والاستعمار ، واذلال الشعوب الضعيفة لاتزال هى البواعث المسيطرة ؟

أسمع من كثيرين من ذوى المكانة أن الاستعمار والاستبداد قد زالا بزوال القرن الماضى ، وأن العالم الآن قد استبدل بتلك الفكرة البغيضة التعاون التجارى والزراعى والصناعى .

فهل حق هذا ؟ .

هل تحققت هذه الفكرة أو أن الناس ظلوا كما هم ، يعيشون كما كان يعيش أسلافهم فى القرون الماضية ، تحت قانون الغاب . وقانون الحق للقوة ، لا القوة للحق والانسانية ؟

تلك أسئلة أطرحها لكل ذى ضمـــير ، ليجيب عنها بنفسه ولنفسه .

الديمقراطية الإسلامية

القسم الثانى

قلنا فى صدر الموضوع : إن كلمة الديمقراطية كلمة دخيلة فى اللغة العربية لم يتداولها الناس قبل القرن الحاضر . فلم يكن العرب فى صدر الاسلام على اتصال بما أنتجه العقل الأغريق ، من علوم ومعارف ، وثقافات حتى العهد العباسى ، الذى بدأ العرب يترجمون فيه التراث الأغريق الى اللغة العربية .

واذا جاز أن يكون العرب قد سمعوا فى هذا العهد عهد الترجمة كلمة « الديمقراطية » ، فقد كان هـــذا السماع مقصوراً على دائرة ضيقة من العلماء الذين ترجموا أو اتصلوا بالمترجمين ولم تشع فى ذلك الحين ، ولم تستعمل بين الجمهور للدلالة على هذا المعنى الخاص الذى تدل عليه اليوم .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن الترجمة حين بدأت فى القرن الثالث من الهجرة — التاسع من الميلاد — كانت ترجمة حرفية ، يلاحظ فيها الحرف الأصلى للكلمة المترجمة دون ماتدل

عليه من معنى . لذلك كانت كلمة « فيزيق » مستعملة فى اللغة العربية كما كانت مستعملة عند الأغريق لتدل على ما نسميه اليوم « الطبيعة » ، وكلمة « ميتافيزيق » لتدل على ما نسميه اليوم « ماوراء الطبيعة » ، وكلمة « بوليتقى » لتدل على مانسميه اليوم « بالسياسة » ، وكلمة « ديمقراطيق » لتدل على مانسميه اليوم « بالديمقراطية » ، وهكذا . غير أنها بقيت كسائر الأسماء المنقوله من اللغة اليونانية كأنها أسماء أعلام معروفة فقط بهؤلاء الذين لهم اتصال علمى بها ، فكأنها كانت وقفا على هذا النفر القليل من العلماء ، المعنى بالدراسات الاجتماعية والسياسية من التراث الأغريق .

وأما سائر العرب فى ذلك العهد فكانوا كالعرب قبلهم ، لا يعرفون شيئا عن تلك الأفكار اليونانية ، والكلمات الأغريقية المعربة .

وليس معنى هذا أن العرب كانوا يجهلون مدلولها ، الذى تدل عليه اليوم ، كما كانوا يجهلون اللفظ ، فالعرب أحرار بطبيعتهم ، وديمقراطيون بطبيعة تكوينهم وبيئتهم . وسنرى هنا إلى أى مدى كان الاسلام ديمقراطيا فى نزعته . وتشريعه . وفى تكييف حياة المسلمين العملية .

قام نبينا الكريم ﷺ يدعو الناس إلى التوحيد والفضائل ، فى بلاد تفشت فيها عبادة الأوثان والجهالة . وكان القوم فى بلاد الحجاز عاكفين على الظلم والاستبداد ، وعلى أعمال السلب والنهب ،

وعلى الغزو والتقاتل ، وعلى الخمر والميسر . وعلى التفـــاخر بالأنساب ، وقوة الشكيمة والأتباع ، وكثرة النفر والنفير .

وكانت بلاد الحجاز بلاداً جرداء قاحلة ، كلها صحارى وجبال ووهاد ونجاد . عف الفاتحون عنها فبقيت فى عزلة واستقلال . وظل أهلهـا متمتعين بحرية الحركة والانتقال . يتصرفون فى أمورهم كما يشاءون ، من غير أن يكون لهم وازع إلا المصلحة القبلية والعصبية والوثنية .

وحول هذه الصحراء القاحلة كان يوجـــد من جهة الشمال أمبراطوريتان عظيمتان ، هما أمبراطورية الرومان الشرقيـــة . وأمبراطورية الاكاسرة «أمبراطورية الفرس» . ويوجد من جهة الغرب البحر الأحمر . ومن جهة الشرق صحراء . ومن الجنوب بلاد اليمن ، وكان لا يؤبه بها فى ذلك الحين .

ومن حيث الحكومة وشئون السياسة كانت بلاد الفرس تحت حكم الطغيان ، أى حكم الفرد المستبد الذى لا يخضع فى حكمه إلا لما يمليه عليه عقله وإرادته . أما بلاد الرومان الشرقية . وهى التى كان يعبر عنها العرب بأمة الروم فقد كان لها امبراطور يحكمها ، وكانت ذات قوانين وضعية كان أهمهـا التشريعات التى وضعها «جوستانيوس» فى القرن السادس من الميلاد ، فوضع ما يسمى «ديجست» و «انستيتوت» و «نوفل» و «القوانين»

وبالرغم من تلك القوانين ، ومن الشرائع التى وضعت أيام جوستانيوس وقبله فقد كانت هذه الامبراطورية مقطعة الأوصال، مفككة العرى ، عم فيها فساد الحكم والطغيان وانتشرت فيها المحاباة والرشوة ، حتى ضعفت قوتها وتفككت .

وأما العرب فكما قلنا كان لا يتحكم فيهم الا التقاليد القبلية ، والمصالح والنزعات والشهوات .

فى هذا العصر ظهر النبى الأمى الكريم ﷺ وقام يدعو الى التوحيد . وهو أساس الاسلام . ذلك التوحيد الذى يعنى أن الله واحد ، قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

ويبين أن محمدا ليس إلا عبد الله ورسوله . لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، ولا يملك لأحد شفاعة إلا أن يأذن الله له ، وأنه انسان وبشر أوحى اليه برسالة فحسب . « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى إنما الهكم اله واحد » ، وأنه ليس هناك بين العبد وربه حاجز فلا وساطة . والطريق إلى الله مفتوح لكل انسان ، يصل اليه من يشاء ، بعمله وجده لا بحسبه ونسبه أو بشهادة القديسين والمصلين له . فليس هناك اعتراف لغير الله أو توبة الا له . وليس هناك نظام كهانة أو كهنوت أو رهبانية أو زهد

عما اباح الله لعباده من الطيبات ، ولكن عبادة وتعمير للأرض وبناء للمجتمع .

فحطم « محمد » بهذه الفكرة أوثان المشركين كاللات والعزى ومَناة وهُبل ، وحرم عبادة الأوثان . وفى سبيل هذه الدعوة الكريمة التى نهضت بالعقل الانسانى إلى ما يليق به من كمال إنسانى عرض نفسه إلى الأذى ، وعداء أهله وذويه وأقرب الناس اليه . فتألبوا عليه وجمعوا جموعهم لقتله ، فأنقذه الله مما كانوا يمكرون .

وعلى الرغم من ذلك كله فقد كانوا كلما امعنوا فى ايذائه قال: « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » .

حرم الخمر والميسر وحرم وأد البنات ، وقد كان المشركون يرون من العار أن تكون لهم بنات ، فكان من بينهم من يضعها فى حفرة ، ويهيل عليها التراب حتى تموت .

منع رسول الله ﷺ هذه الوحشية ، وأزال هذه الجهالة وجعل للبنات حقا فى العيش كالبنين وغيرهم من سائر خلق الله . وجعل للناس جميعا واجبات بعضهم على بعض وأشاع فيما بينهم أن أحبهم إلى الله هو أنفعهم للناس . ليتسابقوا إلى الجهاد فى سبيل الخير الاجتماعى حتى يوجد شعب ، يستعد كل فرد من أفراده للتضحية بمصالحه الشخصية فى سبيل المصلحة الاجتماعية .

أوجب الصلاة والزكاة وصوم رمضـــان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا ، لا ليطهر قلوب الأفراد ويزكيها فحسب . بل ليهيء للمسلمين فرصا اجتماعيـــة يلتقون فيهـا كل يوم وليلة لتتأكد عرى الروابط بينهم ، ويلتقون فيهـا من كل عام فى مكة المكرمة ، ويكونون مؤتمراً إسلاميا يتداولون فيه شئونهم ، ويتدبرون أمورهم ، ويقررون مافيه خيرهم وصلاحهم ، حتى ينهضوا إخوة متآزرين متصافين متحابين ، كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

ونادى بأن الناس سواء لا فرق بين هاشمى وغير هاشمى . بين عربى وغير عربى . بين أبيض وغير أبيض . بين شريف ووضيع . بين هذا وذلك . فالكل سواء فى الإنسانية . والكل سواء أمام القانون . والكل سواء أمام الله . لا يتميزون إلا بالتقوى والعمل الصالح .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

أرأيت خيرا من هذا نورا ينبثق من بين أمة جاهلة متناحرة ، تجعل الناس طبقات بعضها فوق بعض . وتتفاخر بالأحساب والأنساب ، والقوة والعصبية فينادى بأن الناس سواسية ، لا يتفاوتون ولا يتفاضلون ، إلا بما يقدمون للمجتمع من جلائل الأعمال ؟

ذلك النور هو محمد بن عبد الله الذى لم يتلق هذا السمو عن أحـــد من أهله وذويه . أو عن البيئات التى كانت تعاصره وتجاوره ، ولـكنه تلقاه عن الوحى الأمين الذى لا ينطق عن الهوى ؛ فهو نور الهى يهدى الانســـانية إلى أرقى ما يهدف إليه الانسان الـكريم .

كفل محمد للمرأة حريتها واحتفظ لها بانسانيتها . ولم يجعلها متاعا، بل إنسانا يتمتع بما يتمتع به كل انسان من حقوق . فلها أن تملك المنقول والعقار ما شاء لها حق التملك . ولها أن تبيع ، وأن تهب ، وأن توصى وتقاضى كما تريد . ولها حق الارشاد ، ولها حق التعليم . ولا ينقص حق من هذه الحقوق بزواجها فهى تحتفظ بمالها، مستقلة عن مال زوجها ، كما لها أن تتصرف فيه كما تشاء ، وأن توكل عنها من تشاء ، دون أن يكون لزوجها سلطان عليها فى ذلك كله .

نهض بالانسان إلى مكانة عليا، فاحترم عقله وارادته وحريته، وتركه حرا من غير أن يكرهه على أن يعتنق هذا الدين أو ذلك الدين « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

ولم يشرع الحرب أداة لالزام الناس أن يكونوا مؤمنين، بل دفاعا عن النفس والعقيدة، وتأمينا لطريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» . و« لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم

من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، و « قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »

وانظر إلى خطب الرسول الخالدة ﷺ تجده فيها ينهى عن حرب التخريب والشدة ، ويحرم حرب الاستئصال . فكان يقول فى وصاياه : لاتقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما . ولا تقطع شجرا مثمرا . ولا تخرب عامرا . ولا تعقر شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة . ولا تعقر نخلا ولا تحرقه ولا تغلل ولا تمثل ، ولا تقتل أصحاب الصوامع ، أى المعتكفين على العبادة من غير أهل دين الاسلام . إلى غير ذلك من الأوامر والنواهى ، التى تبين بوضوح أنها لم تكن حرب غيظ ونكاية . بل حرب ضرورة أثارتها أحقاد قوم لايعقلون ، ولا يريدون أن يتركوا الأبواب مفتحة فى سبيل دعوة رشيدة ، تتبع خير الطرق وأسلمها .

ارتفع بالعلم والعلماء فى عصر الجهلاء والجهالة .

فجاء فى القرآن الكريم :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب » .

و « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

و « ما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور » .

وجاء فى السنة :

« تعلموا العلم ولو بالصين » .

و « تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة » .

ارتفع بالعلماء حتى سماهم أهل الذكر وأولياء الأمر . يسألون فيما يختلف فيه الناس ، ويرجع إليهم الحاكمون والمحكومون على السواء .

وبلغ من حبه للعلم والتعلم أن جعل فداء من يقرءون ويكتبون من أسرى « بدر » أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة ، فى وقت كان الاسلام فيه أحوج ما يكون للرجال والمال .

جعل أمر الناس شورى فيما بينهم ، بعد أن وضع قواعد عامة ومبادىء عليا صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان . وترك للعقل الانسانى بعد ذلك فيما عدا قليلا من التشريعات التفصيلية حرية الحركة والعمل فى كل العصور والأزمان .

فجاء فى القرآن الكريم « وأمرهم شورى بينهم » و « شاورهم فى الأمر » .

وأوجب طاعة هؤلاء وطاعة أولى الأمر ما لم يأمروا بما يخالف الله . « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

وفى الحديث « السمع والطاعة حق على المرء فيما أحب أو أكره مالم يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » و « إنما الطاعة بالمعروف » .

بذلك كله — وكله نهوض بالعقل الانسانى . نهوض بالمرأة والرقيق ، تسوية شاملة بين أفراد الجنس البشرى ، لا يفترق فيها فرد عن فرد لدينه أو لقومه أو لونه — أوجد الاسلام ديمقراطية عالمية ، مخالفة لتلك الديمقراطيات المحلية التى ألمعنا اليها سابقا ، ونفذها بين الجماعة .

أرأيت كيف كان محمد ﷺ منفذا لأوامر ربه ، ومسويا بين الأشراف والأرقاء ؟

أرأيت كيف غضب حين قال أبو ذر الغفارى لعبد زنجى : « يا ابن السوداء » ، وقال له : طف الصاع طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح .

انظر إليه يقرر فى حجة الوداع دستور المسلمين فى هذا الصدد فيقول : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عندالله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض ، فضل الا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

فلما بلّغ الرسالة ،وأدى الأمانة ، وأعلم الناس بوحدة الخالق وبوحدة المخلوق انتهت مهمته فى هذا العالم ، ففارقه مطمئنا ، تاركا فينا ثروة ، لو تمسكنا بها لكانت نوراً هاديا إلى سبل الرشاد .

وهى تلك الثروة التى لا نجد لها شبيها من عمل الانسان . فقد ناقضت ما كان عليه أهل الحجاز من عادات وعقائد وتقاليد . وما رآه فلاسفة اليونان والرومان ووصلوا إليه من ثقافات ، بل كانت ثورة عليها لأنها كانت تستعبد الانسان للانسان ، وقد خلقهما الله متساوين فى الحقوق والالتزامات .

وحق لها ذلك ، فهى دين الخلود . وخاتمة الأديان . ومكملة الرسالات ،التى جاء بها النبيون من قبل ابراهيم واسحق ويعقوب. وموسى وعيسى والنبيون من قبل . وبذا اختتمت سلسلة الرسالة واكتمل بناء النبوة .

ذهب رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى فخلفه من بعده « أبو بكر الصديق » . وهو ذلك الصديق الصدوق الذى كان أول من أسلم من الرجال وعرض نفسه لشديد الأهوال ، وضحى بماله فى سبيل الله وفى سبيل نصرة الدين .

ولى أبو بكر رياسة المؤمنين بالمبايعة ، فبايعه فى سقيفة بنى ساعدة بعد جدل عنيف وخصومة وجدال — نفر قليل ، ثم تابعهم

الناس . وبذا تمت البيعة ولزمت الطاعة ، فقام خطيبا مبينا أسلوب الحكم الذى سيسير عليه . فأبان أنه حكم شورى ، وأنه ليس إلا واحدا من المسلمين ، يخطىء ويصيب ، فيحتاج إلى رأى المؤمنين ليرشدوه . وليقوموا عوجه .

فقال: «أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

وقال فى خطبة أخرى : « انما أنا متبع ولست بمبتدع ، فان استقمت فتابعونى ، وإن زغت فقومونى » .

بهذا الأسلوب الحكيم ساس أبو بكر المسلمين ، حتى مات راضيا مرضيا عنه .

ثم خلفه الفاروق « عمر بن الخطاب » بتوصية من أبى بكر ما لبث أن وافق عليها المسلمون فبايعوه مختارين ، فقام يقول « إن رأيتم فىّ اعوجاجا فقومونى بحد السيف ، ولا خير فيكم مالم تقولوا ولا خير فىّ ما لم أسمع »

ذلك هو عمر الذى جاء يسأل عنه رسول قيصر ليفاوضه فى شأن الصلح ، فوجده نائما تحت شجرة ، وجد خليفة المسلمين الذين دوخوا كسرى ورجال قيصر ، وأنزلوهم من صياصيهم وقلاعهم

صاغرين — نائما فى العراء تحت شجرة ، يتوسد حذاءه ، فهبت وقال : « حكمت فعدلت فأمنت ، فنمت يا عمر »

ذلك هو عمر الذى بنى الامبراطورية الاسلامية لا حبا فى الفتح والغزو ، ولكن تأمينا للدعوة ولدين الله . ولم ينل منها سوى لقيمات لا تكاد تغنى اليوم سائلا عن السؤال .

أرأيت كيف كان عدله واحترامه للحرية الفردية ، ضرب الأمثال ؟

انظر إلى ما عمله عمر مع نصارى بيت المقدس وسكانه . وما أخذ على نفسه وعلى المؤمنين من عهود ومواثيق ، لتعلم أن الغاية من تلك الفتوح لم تكن توسعا أو استعمارا ، بل تأمينا للدعوة والحرية والدين والتفكير ، فى عصر كانت الحريات الفكرية فيه جريمة .

عندما افتتح المسلمون بيت المقدس طلب البطريق « صوفرنيوس » إلى عمرو بن العاص قائد جيش المسلمين أن يطلب حضور عمر أمير المؤمنين ليتسلم بنفسه بيت المقدس ، وليمضى معه المعاهدة ، فلم تأخذ أمير المؤمنين العزة ، واستجاب لطلب المغلوبين ، وذهب من المدينة إلى بيت المقدس ، على دابة يتناوبها هو وخادمه . فما أن وصل إلى البيت حتى سلمه البطريق مفاتيحه ، فزار كنيسة القيامة ، وفى أثناء زيارته حان موعد الصلاة ، فهم عمر بالخروج من الكنيسة ، ولكن البطريق حاجه قائلا : إن الاسلام لا يمنع من الصلاة فى أى مكان ،

وطلب اليه أن يصلى فى الكنيسة ، فأبى عمر أن يفعل ذلك ، لا كرها للصلاة فى الكنيسة ، بل لأنه خشى أن يأتى المسلمون فى يوم من الأيام ويتخذوا هذا المكان مسجدا قائلين : هنا صلى عمر » . فلله درك أيها الفاروق ، ما أعدلك وما أبعد نظرك ! .

ثم أعطاهم هذا العهد الخالد :

هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم ، لا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم .

وانظر كيف كانت الشعوب المضطهدة تستقبل المسلمين بترحيب واستبشار بل يدعونهم للدخول ، ويفتحون لهم الأبواب ، كما فعل المقوقس رئيس أقباط مصر وغيرهم من الشعوب وحكام الأقاليم لينقذوهم من براثن الحكم الغاشم ، حكم الدخلاء الغاصبين . إذ أن العرب لم يكونوا مستعمرين طامعين فى التوسع الأقليمى رغبة فى ملك أو مادة ، ولكن كانوا مؤمنين بتلك الدعوة ، يحاولون إزالة الغواشى التى كانت تقف حاجزا ، تمنع الضعفاء من الاستماع للحق والانصات لكلمة الهدى والرشاد .

لذلك لم يكن المسلمون الأولون — وهم أكبر حجة فى فهم معنى الاسلام — يعدون جيشاً للاستعمار ، ولكن كانوا يتركون

من فتحت بلادهم يديرون أمورهم كيف شاءوا ، واذا أسلموا لم يكن لأحد عليهم من سلطان إلا سلطان كتاب الله ، وما للمسلمين بعضهم على بعض من حقوق النصح والشفقة والاحسان .

وعمر هذا هو واضع قاعدة « من أين لك هذا » حين كان يحاسب عماله ، ويقاسمهم أموالهم ، لأنهم لم يرسلوا ليكونوا تجاراً ، أو يستغلوا نفوذ الامرة والسلطان . تلك القاعدة التى وضع لها بعض الدول فى أيامنا الأخيرة قوانين لمحاكمة الوزراء وغيرهم على استغلال النفوذ .

وعمر هذا هو الذى حجر على كبار الصحابة أن يخرجوا من المدينة ، ويقتنوا الأموال خارجها لئلا يفتنوا ويفتنوا .

وفى عهده تسابق مصرى مع ابن لعمرو بن العاص فاتح مصر وأميرها فى ذلك الحين . فسبقه فاغتاظ ابن الأمير وضرب المصرى قائلا : أنا ابن الأكرمين . فأقسم المصرى ليشكونه إلى عمر . فلما فعل استدعى عمر الأمير وابنه وأعطى المصرى درته ، وقال له : اضرب ابن الأكرمين كما ضربك فلما فعل قال له : اضرب الأمير ، فقال : إن الأمير لم يضربنى . ثم التفت عمر إلى الأمير وقال : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ؟

أرأيت كيف رضخ عمر لقول امرأة حين أراد تحديد المهور لما رأى تغالى الناس فيها . فقالت له امرأة : كيف نصيخ لرأيك

والله يقول « وان آتيتم احداهن قنطاراً » فاستسلم عمر ، وقال : أصابت امرأة ، وأخطأ عمر .

أرأيت أميراً للمؤمنين أو غير المؤمنين يجلس أمام النار ينفخ بفيه النار على قدر ليسوى الطعام سريعا ، لأطفال جياع ، والدخان يتصاعد فى وجهه وعينيه .

تفقد عمر ذات ليلة أحوال رعيته ، فرأى امرأة توقد تحت قدر ، ورأى أطفالها حولها يبكون ، فسألها عما بهم ، وعما بالقدر . فقالت : يبكون من الجوع وبالقدر ماء وحصى ، أعللهم به حتى يناموا . فذهب عمر ورجع يحمل دقيقاً وسمناً ، فألقى بشىء منهما فى القدر ، وصار ينفخ النار بفيه ، والدخان يتخلل لحيته ، حتى نضج الطعام ، فأكل الأطفال وشبعوا . ولم يتركهم حتى لعبوا وضحكوا وناموا .

انظر إليه غاضباً ، حين رأى شيخاً ذمياً يتسول ، وقائلا : إننا لم ننصف الرجل نأخذ منه جزية وهو قوى ثم نتركه وهو ضعيف ثم أمر أن يعطى من بيت المال ما يكفيه .

تلك كانت عدالة عمر . وتلك كانت ديمقراطيته ، التى لم تكن شيئاً ابتدعه ، بل تنفيذاً لروح الدين ولمبادئه .

لذلك لم يكن عمر بدعا فى هذا ، بل شاركه فيه كل من أتى من بعده من الخلفاء والأمراء الذين حافظوا على الدين بأوامره

ونواهيه ، أولئك الذين لو حاولنا إحصاءهم وإحصاء مآثرهم الاجتماعيـــة لطال بنا المقام طولا يخرجنا عن موضوعنا هذا فنجتزىء بما ذكرنا ، من مثل العدالة العليا ، والديمقراطية الشاملة فى عصور الظلم والجور والاستبداد .

* * *

لست أريد هنا أن أقارن بين تلك العدالة الشاملة والحرية الكاملة وبين الكبت والعسف والاستبداد التى كان يئن العالم منها فى ذلك الحين وبعد ذلك الحين . فكتب التاريخ مليئة بذلك النوع ، تبين أن الطغيان والجبروت كان ديدن حكام أوروبا — حتى بلغ أن قال بعضهم — لويس الرابع عشر — فى القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر من الميلاد : « أنا الدولة » .

وظل ذلك الوضع سائدا حتى الثورة الفرنسية التى اعلن فيها الفرنسيون مبادئهم السامية الثلاثة (الحرية والأخاء والمساواة) وهى ليست إلا إحدى المبادىء السامية التى أعلنها الاسلام قبل ذلك بأحد عشر قرنا .

وضع الاسلام قواعد عامة لقيادة الجماعة ، ولأصول الأحكام . وضع قواعد أغلبها عام يرجع إلى مكارم الأخلاق . وتحقيق العدالة . وإزالة المنكر وجعل الحكم شورى بين المسلمين ولكن

تفاصيل تلك الشورى متروكة للمسلمين ليقرروا أصلح الأنواع التى تتناسب مع الزمان والمكان وظروف الأحوال . ولما يجد من أحداث ، ولما يرتبط بالعالم الاسلامى عند اتساع رقعته من أمم وتقاليد وعادات .

فقواعد الاسلام فى هذا الباب ، وفى كثير غيره عامة ومرنة ، تتسع لكثير من الأمور الجديدة التى تستدعيها طبيعة العمران . ولقد كان الاسلام حكيما فى ذلك ، وحكيما فى أنه لم يترك للناس التصرف فى معنى الأخلاق ومدلولها ، خيفة ان يزيفوا ويضلوا فى تحديد الأخلاق الكريمة ، تحت عامل الجهل أو الشهوة .

وتلك الأخلاق القويمة والمبادىء الكريمة التى دعا اليها الاسلام وقام بها المسلمون هى سر انتشاره واتساع رقعته . وإن نظرة واحدة الى العالم الاسلامى كما نراه اليوم لكفيلة بتبيين ذلك .

انظر إلى الاسلام تجده قد انتشر فى بلاد الهند مثلا انتشاراً عظيما ، بعد سقوط الدولة المغولية ، وبعد زوال ملك المسلمين ، حتى بلغوا اليوم مائة مليون . وقاربوا الخمسين فى الصين . وفى أندونيسيا وجزر المحيط الهندى وسواحله ثمانين مليونا . وفى أواسط افريقية عدد كبير من الملايين — كل ذلك من غير أن يكون له ظهير من قوة أو سلطان ، وإنما هى سماحة الدين الإسلامى ، والتجاء المسلمين

إلى وسائل الدعوة بالحسنى ، التى أمر بها القرآن الكريم ، بقوله : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» .

فالاسلام يتغلغل بالسلم والاقناع ، ويسير إلى الأمام بخطا واسعة ، قوى المؤمنون أو ضعفوا . ولقد شهد بذلك كل من رجال الدين والسياسة على السواء .

فترى هتلر مثلا فى كتابه ، كفاحى ، يصرح بأن المبشرين مع ما ينفقون من أموال ، وما يبذلون من تضحيات لم ينجحوا فى إيقاف هذا التيار الجارف ، تيار انتشار الاسلام . ولعل ذلك هو الذى دعا بعض السياسيين إلى أن يمنعوا المسلمين من دخول بعض المناطق الاستوائية ، ومنع سكان هذه المناطق من الاتصال بالمسلمين . أتلك هى حرية القرن العشرين أم أننا لا نزال نتخبط فى دياجير من العسف والعبودية ؟

قلنا : إن الاسلام وضع قواعد عامة ، وترك أمرها إلى أهل الذكر من المسلمين ، كما جاء فى القرآن الكريم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . ولهذا قام فى الدين عند بعض المذاهب للمحافظة على روح الاسلام ، وحسن تطبيقه — مصدران آخران فى التشريع بعد القرآن والسنة . هما القياس والاجماع . حتى إذا

ظهرت حادثة لم يشملها نص صريح من كتاب أو سنة تمكن المؤمنون من إيجاد حكم معقول لها ، مسترشدين فى ذلك بالأقيسة ، وباجماع أهل الذكر ، وهم الأكفياء الذين تمكنوا من قواعد دينهم، وسمت أخلاقهم ، حتى يأتمنهم المسلمون فى أقضيتهم ومنازعتهم .

ومن هنا ظهرت المذاهب الاسلامية ، واختلفت وتعددت ، وهى تسعى كلها إلى الخير وإلى الحق، دون أن تخرج عن الأسس التى جاءت فى الكتاب وفى السنة فهى خاضعة من حيث المبدأ إلى التشريعات السماوية الخالدة ، كما تخضع السنة أيضا لها . وفى ذلك سألنا الرسول ﷺ أن نرجع كل مايروى عنه إلى كتاب الله ، فان وافقه فبها ، وإلا ضربنا به عرض الحائط .

* * *

فالشورى من القواعد التشريعية العامة، التى أمرنا أن نعمل بها فى شئون المسلمين، وفى شئون الدولة. ولكن ترك تحديدها وتفصيلها للمسلمين، ليكونوا نوع الشورى التى تتناسب مع حياتهم الاجتماعية.

وهنا صح للمسلمين أن ينشئوا مجالس نيابية بجانب ولى الأمر . وجاز لهم أن ينشئوا بجانب هـــذه المجالس أيضا مجالس أخرى، تراقب الأولى ، وتراجع ماتقرره ، حتى تكون قراراتها أدعى إلى الطمأنينة ، وأقرب إلى السداد .

ويجوز للجماعة الإسلامية أن تطمئن إلى قرار أهل الذكر، فتحصر النواب فيمن ترى فيهم كفاءة فى نواحى النشاط الاجتماعى، كما يجوز لها أن تجعل الانتخاب حرا طليقا، تختار الأمة من تشاء، إذا لم تجد حرجا من ذلك.

كل هذا وغيره من الأمور التى لم يشأ الاسلام أن يدخل فى تفاصيلها. بل تركها إلى ضمير الشعب ودينه وخضوعه لقواعد الاسلام الأساسية، التى أمر بها من عدل ورحمة، واحترام للحقوق الفردية والحقوق العامة والالتزامات والعهود.

كذلك لم يحدد الاسلام شيئا اسمه خلافة، أو إمارة، أو إمامة، بل ترك ذلك للمسلمين فجاءوا واختاروا الخليفة ولقبوه، وكان هذا اللقب مدلولا لغويا للكلمة التى تدل على مركزه الذى هو فيه. وجاء من بعده عمر فلقب «بخليفة خليفة رسول الله» وكان ذلك حقا ومدلولا لغويا أيضا. ولكن وجده المسلمون طويلا فاستبدلوا به لقب «أمير المؤمنين» واستمر هذا اللقب سائدا من غير أن يكون له أساس فى كتاب الله أو سنة رسوله. مما يدل على أن صورة الحكم ثانوية فى الاسلام.

ولهذا جاز لنا أن نلقب من يلى الحكم بأى لقب شئنا أن نلقبه به، رئيسا أو حاكما أو راعيا أو سلطانا أو ملكا أو شاها أو امبراطورا.

فهذه ألقاب لا يعنى بها الاسلام فى شىء، ومتروك أمرها للمسلمين، لا يقيدون بشىء إلا بتلك القواعد الأساسية، وهى أن يكون ولى الأمر دستوريا. وأن يكون الشعب مصدر السلطات. وأن تكون سلطة الشعب خاضعة لقوانين الدين، ومستمدة من روحه وتشريعاته التى وضعها الله حفظاً لكيان المسلمين، وصيانة للعدل المطلق الذى قرره من أن ينصرف به الناس، وتلعب به الأهواء، وعملا على إشاعة السلام والطمأنينة والحب والتواد بين الناس، وعلى رفع مستوى الفقراء والمعوزين. وإقراراً بأن للفقراء فى أموال الدولة، وفى رقاب الأغنياء حقاً معلوما، ينبغى أن يكون.

تلك هى القواعد العامة التى تباهى بها اليوم الديمقراطيات الحديثة، وهى من مبادىء الاسلام الأولى، التى لم تترك تحت رقابة الضمائر والنظم والقوانين فحسب. بل تحت رقابة الله العليا، وهو الذى يعلم ماتخفى الصدور، ويراقب المرء فى سره وفى علانيته.

تلك هى ديمقراطية الإســـلام. وهذا هو عمقها وأثرها فى النفوس، كأداة تطهيرها. لا بالرياء والختـــل والخداع، ولا بالمظهر والصورة. ولكن بالواقع والحقيقة وبحسن النية والإخلاص.

فليسم المسلمون ولى أمرهم بما شاءوا من أسماء، وليقيدوا

الشورى بما شاءوا من قيود وضمانات ، ولينتخبوا من أولى الذكر مايشاءون ، ممن يتوسمون فيهم خيراً لخدمة الله والدين والوطن .

فتلك حالة تختلف باختلاف الزمان والطباع والتقاليد . ولا تتقيد إلا بالقاعدة والمبادىء التى أشرنا اليها .

وما دام الإسلام قائماً على الدعوة إلى الحق بالحسنى . وعلى أن لا إكراه فى الدين . وما دام بحق دين العالم الذى يرمى إلى أن يكون الناس كلهم مؤمنين ، فكيف يتأتى لكل هذا العالم الشاسع ، المترامى الأطراف ، المختلف الأمزجة والثقافات والعادات — أن يكون دولة واحدة تخضع لحاكم واحد ؟

ولماذا لا يتعدد خلفاء رسول الله بتعدد أقطار الإسلام . ويكون الملك والسلطان الأعظم عليهم جميعاً — كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يربطهم جميعاً باسم الله ، ويجمعهم على كلمة التقوى والإيمان . ذلك أولى بالإسلام العالمى وأجدر .

* * *

والآن إذا رجعنا إلى الوراء ، ونظرنا إلى حكم عمر ومن وليه ، وإلى حكم أبى بكر كذلك أمكننا أن نسميه حكم الفرد الصالح الذى ألمعنا اليه فى نظم اليونان ، بيد أنه يختلف عنه فى بعض المسائل الجوهرية .

فحكم الفرد الصالح اليونانى كان حكم فرد يستند إلى رأى جماعة من عقلاء الأمة فحسب . وأما حكم الفرد فى الإسلام فكان يرجع فى النهاية إلى قواعد العدل المطلق ، والمساواة الكاملة التى قررها الإسلام .

والديمقراطية اليونانية بما فيها من حكم الفرد الصالح كالديمقراطيات الحديثة ، التى تفرعت عنها ديمقراطيات محلية لم تنهض بحال للمستوى العالمى ، الذى يليق بالديمقراطيات الإنسانية .

وأما الإسلام فالنظرة الإنسانية فيه كاملة .

فقد سوى كما بينا آنفاً بين أفراد الانسانية جمعاء ، لا فرق بين زنجى وغير زنجى . لا فرق بين عربى وغير عربى . لا فرق بين هاشمى وغير هاشمى . لا فرق بين أقارب الرسول وأقارب من عداه ، أو من عاداه إلا بالتقوى وبالعمل الصالح .

ذلك هو العدل الإنسانى المطلق . فسمه بما شئت غير الديمقراطية فإنها كلمة كما نعرفها اليوم ضيقة لا تصفه ولا تحده .

وهو العدل الشامل الذى وقف بعض من لا يفهمونه حاجزاً دون انتشاره . ولكنه سينتشر يوما ما ، حين يرقى الإنسان ، وتزول عنه عصبية الجاهلية .

وسيأتى يوم يوفق فيه الانسان كانسان . ويتسع أفقه . ويكبر

عقله . وترتفع إنسانيته . فيتخلى عن قانون الغاب والظلم والاستبداد، ويتمسك بقانون الإسلام ، قانون العقل والرحمة والعرفان .

وإلى أن يأتى ذلك اليوم. يوم الإنسانية السعيد فستظل الأرض مهلكة ومذبحة ، ومكان التطاحن والتنازع والحروب ، حتى تشتد الأزمة ، وتعصف العاصفة ، وتضيق الأمور ، وتشتد الظلمات ، فتوقظه الشدة وتنبهه القارعة ، فيؤمن بسبل السلام والإسلام ، ويحترم أخاه الإنسان .

وفقنا الله جميعاً للسداد والسلام .

كلمة الافتتاح

فى الاحتفال بذكرى إقبال

« ألقى سعادة محمد على علوبة باشا هذه الكلمة فى مدينة لاهور فى ٢١/ ٤/ ١٩٤٩ . وننشرها هنا لأن فيها كثيراً من المعانى الديمقراطية ، التى تتصل بموضوع الكتاب » .

بسم الله الرحمن الرحيم

رأيته لأول مرة فى القدس من عشرين عاما مضت ، أيام كنا وكيلين للمؤتمر الاسلامى العام ، الذى انعقد هناك ، للدفاع عن فلسطين ، ولقد كنا من خطباء هذا المؤتمر . كنت أعرفه قبل ذلك بالاسم فلقد سبقته شهرته إلى الأقطار العربية كشاعر ومفكر وفليسوف . ولم أكن أعرف عنه غير ذلك ، لأن قصائده وأفكاره وحكمه وعظاته كانت كلها باللغة الفارسية أو الأوردية ، فلم يصلنى من معانيها سوى القليل النادر ، الذى لايكفى لاعطاء حكم صادق على الرجل ومقدرته ، فذلك يستدعى الاحاطة باتجاهاته وبما يرمى إليه من أهداف — فهل كان شاعراً للشعر ومفكرا يبغى إبراز جوامع الكلم فى ثوب قشيب يشعر بأدبه وبلاغته فحسب ؟ . وهل كان هدفه أن يترك للناس نماذج من حسن

البيان يتغنون بها فى الحب ، أو الوصف وفى المديح أو الهجو وفى الحماسة أو فى الدعة والسكون ؟ ، وفيما إلى ذلك مما تركه لنا رهط من الشعراء الأولين أو كان أكثر عمقاً وأبعد غوراً .

لم يكن لدى من المعرفة مايسمح لى أن أحكم عليه ولم أكن لأتمكن كذلك من الحكم عليه ، بمجرد التعارف والمحادثة وإطراء المعجبين به ، ممن عاشروه ، وتفهموا قليلا أو كثيراً من شعره .

رأيته فوجدته متوسط القامة ، لم يكن رابى الجسم ولا ضامره ، كان هادئا قليل الكلام كثير التفكير ، تعلوه سمات العلماء المتواضعين ، فما أن أتى دوره فى الخطابة وألقى كلمته بالأوردية — وبها حديث نبوى شريف ألقاه بالعربية ، وسأتحدث عنه فى كلمتى هذه — وفهمت من بعض أصدقائى مغزاها حتى فهمته هو وأهدافه بعض الفهم ، ثم أحببته وشرفت بصداقته .

وبعد قليل رحلت إلى البلاد الهندية وبقيت فيها أربعة أشهر ونصفاً ، وحظيت بلقاء هذا الصديق مرة أخرى فى مدينة لاهور الزاهرة ، فأخذنا نتحدث فيما يجب أن يعمل للأخذ بناصر فلسطين منكودة الحظ .

وها أنذا أرجع اليوم اليكم اتلفت يمنة ويسرة للقاء هذا الصديق العظيم ، لأستمتع بأحاديثه العذبة وعظاته البالغة فلا أجد له حسا ، وأجد نفسى — والأسى يملأ فؤادى والألم يقض مضاجعى

واقفاً لأرثيه فأرثى الرجولة والطهر فيه . وكأن الله جلت قدرته أراد أن يرتفع بهذا الرجل الكريم عن هذه الأرض الفانية ، التى دنستها الشهوات الوضيعة ، فلا يشهد بعينيه ، ولا يسمع بأذنيه ماحل بفلسطين من مآسى فاجعات .

وإن عزاءنا فيه هو أن روحه الطاهرة تطل علينا الآن من جنات الخلد ، تبارك شعب الباكستان ، وتدعوه لتحقيق آماله فيه وماكان ينادى به فى حياته ، وما ضحى به فى سبيله من راحته ومن دنياه .

رأيته وصادقته ، ثم فهمت شيئاً عن خبايا نفسه التى بدت فى شعره ، فعجبت كيف لهذا الجسم المحدود أن يضم هذا العقل الجبار ، والخيال الخصب ، والثروة الضخمة فى البيان وفى الفلسفة ، والنفس الثائرة التى لا تعرف هوادة ولا تؤمن بحدود ، فى سبيل النهوض بالمسلمين ، وإرشادهم إلى الطريق السوى ، الذى رسمه الاسلام . وفى سبيل تعريفهم : كيف يكون الايمان ، وكيف يكون شرف الاسلام وطهره وشهامته ونزاهته وجهاده وتضحياته فى العمل على رفع شأن الفرد وشأن الجماعة .

لقد قرأت عنه كثيراً ، وسمعت الناس يتغنون بأشعاره فى المذياع ، وفى مجالسهم العامة والخاصة ، وأعجبنى عنه الكثير . وسأعرض على المتكلمين باللغة العربية نماذج معربة من شعره

لنرى كيف أنه فخر العالم الاســـلامى كله ، وأنه ينبغى على البلاد الاسلامية أن تدرس ما خلفه من ثروة أدبية وفلسفية ، وأن تخلد ذكره بانشاء كرسى باسمه فى الجامعات الاسلامية ، اعترافا بما أسداه للعالم الاسلامى من خير عميم .

وإنى ليحزننى أن الظروف لم تساعدنى على تفهم اللغة الأوردية والفارسية ، حتى أتمكن من أن أرشف من هذا المنهل العذب نفسه ، لذلك لجأت إلى التراجم ، فاستقيت من ترجمة للأستاذ الشيخ الصاوى على شعلان أحد علماء الأزهر الشريف ، وأحد الأعضاء البارزين فى جمعية مكارم الأخلاق الاسلامية بالقاهرة — وهى من الجمعيات التى أتشرف برياستها — ورئيس تحرير مجلتها . لجأت إلى الترجمة معتقداً أن المترجم مع علو كعبه فى الشعر والأدب لم يصل إلى مكانة الأصل من سمو وخيال وبيان .

ويلوح لى أن فقيدنا لم يكن يبغى من وراء شعره أن يلعب بالقلوب والأحاسيس ، لكنه كان مربياً ماهراً ، وكان فيلسوفا مؤمناً مجاهداً ، جعل من نظمه قيثارة توصل حكمه للقلوب فتغذيها ، وتهذب أذواقها ، وتهدى العقول إلى الوطنية والكرامة والاباء ، والايمان والقوة والأمل ، وكان بالأحرى صاحب رسالة أدبية انشائية ، ووطنية اسلامية فى أرفع مظاهرها .

انظر اليه كيف يدفع المرء إلى الهمة والشهامة وطلب العلا حين يقول :

صاح دعنى اكتم الهم الدفين إن كأسى ليس يروى العابثين
من تكن همته نسج الحصير فهو لا يعلم مانسج الحـــرير
منزل الشاهين فى أوج السحاب ماله يسكن فى وكر الغراب
لم يزل فى الروض ظل وثمر فالتمس عشك فى أعلى الشجر

وحين يقول :

إن الجبان يموت فى أوهامه حذر الممات وخوفه يغنيه
والحر تسعده المواطن كلها بالعيش حتى موته يحييـــه

وانظر اليه حين يؤمن بخلود النفس وبأن البقاء للأمم لا للأفراد .

ويحض على التضحية فى سبيل الدين والوطن :

حين يقول :

معيشـــة الفرد خيـال والبقـــاء للأمم
فكن فداء المبـــدأ الـ أعلى إذا نادى العلم
قم وانشر التوحيد فى الدنـ يا ووحـــد الأمم
فأنت خـــير من دعا وأنت خير من حكم

وبقوله :

ذلك المؤمن المجاهد يغشى غمرة الحرب والردى يخشاه
تحت ظل السيوف ماض قوى درعه لا اله الا الله

وبقوله :

أيها الشادى بقرآن كريم وهو كالصخرة فى البيت مقيم
قم وأبلغ نوره للعالمين قم وأسمعه البرايا أجمعين

والآن وقد انتهيت من اقتباس ما أحببت أن ألقيه إليكم من أفكار الفقيد العظيم أود أن أتلو على مسامعكم الحديث النبوى الشريف ،الذى تلاه فقيدنا العزيز باللغة العربية فى المؤتمر الاسلامى العام بالقدس الشريف ، فقال: إن النبى الكريم ﷺ يقول للمسلمين: « أنا حظكم بين الأنبياء وأنتم حظى بين الأمم » . بيد أن فقيدنا العظيم لم يوجه كلامه هنا للعرب فحسب ، كما فعل فى الشعر السابق بل وجهه إلى العالم الاسلامى كافة .

ونحن إذا نظرنا إلى الشطر الأول من الحديث الشريف حق لنا أن نفخر بالانتساب إلى دين الله ، وإلى هذا النبى الأمى الذى اختاره ربه خاتما للأنبياء والمرسلين ، وأنزل عليه قرآنا عربيا مبينا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — قرآنا حول الجاهلين من الوحشية وفساد الخلق وعبادة الأوثان ، إلى وحدانية الله جل

شأنه ،وطهر نفوسهم من رجس الكفر والضلال، ورفعهم إلى أعلى درجات الكمال الانسانى ،من القوة والبأس،والطهر والاباء والحرية، قرآنا سوى بين البشر،فلم يعرف تفاوتا بين الأجناس أو الألوان، أو اللغات أو الأوطان ، بل جعل التقوى والعمل الصالح مدار التفاوت ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا،إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير».

هذا السمو فى المبادىء هو الذى كان ينادى به الفقيد العظيم، ويذكر به المؤمنين ، حتى يسيروا على هديه ، ويفهموا دينهم فهما صحيحا، يؤدى بهم إلى أن ينهضوا نهضة عامة فى طهارة النفس وقوة الجانب وغزارة العلم والمعرفة ، فيرتفع شأنهم أمام من لم يعرفوا حقيقة الاسلام ، ويكون خير مثل لخير هدى .

وإذا انتقلنا إلى الشطر الثانى من الحديث النبوى — وهو أن المؤمنين حظ النبى بين الأمم — لا نجد بدا من أن نتساءل: هل يرضى نبينا ﷺ بحظه منا نحن مسلمى الأجيال الحاضرة وبيننا ما بيننا من تنافر وتدابر ، وتنابذ وفقر وجهل وعزوف عن أوامر الله ونواهيه . وهل هو فى مضجعه الطاهر معتز بنا فخور بحظه منا ؟ أو أنه يرثى لحال أولئك الذين يلتصقون بدينه اسما ، وتشهد عليهم أعمالهم بالزور والبهتان ،ويبرأ إلى خالقه مما يعملون ويقترفون ،من

تبديد أمانة الاسلام المودعة بين أيديهم ، والمعلقة فى أعناقهم . وهل نحن — بالوضع الذى نحن عليه — مسلمون حقا ؟ أو أننا جناة على الإسلام ، وان أخشى ما أخشاه أن تحل بنا نقمة الله ، فيعود الاسلام غريبا فى ديار .

أيها المسلمون فى بقاع الأرض كافة : إننى أوجه إليكم نفثة مصدور . كلمة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام . ألا وهى : إننا باهمالنا لديننا ، وبالبعد عن مبادئه قد أصبحنا فى حالة من الضعف والانحلال لا يليها إلا الهاوية ، فليس لنا علم ولا قوة ، وليس لنا فى النهاية دين . فانهضوا وتعلموا وتضامنوا ، واعتبروا بما وقع عليكم ، وعلى من كان قبلكم من العقاب جزاء وفاقا .

اتعظوا بالأندلس ، وانظروا : كيف ضاعت نتيجة الشقاق والأطماع الشخصية ، والبعد عن مبادىء الدين الحنيف .

وانظروا إلى محنة فلسطين ، واجعلوها عبرة العبر .

انظروا إلى ما بقى لديكم من تراث ، وكيف أنكم قد أصبحتم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وفى شمالها وجنوبها ، فى حالة من الضعف والوهن ، إن لم نتدارك فيها أنفسنا أضعنا ما بقى لنا من تراث ، وأصبحنا سخرية العالمين .

وان عزاءنا الوحيد هو فى رجاء أن تكون تلك اللحظة القائمة من تاريخنا لحظة الظلام الذى يسبق طلوع النهار والضياء منتشر .

وأما أنت أيها الراحل الكريم فانك بيننا حى لم ترحل ولم تمت ، فالميت ميت الأحياء » .

لقد رفعك ربك يا إقبال إلى جواره ، واستجاب لدعائك بخلق الباكستان .

فلتراقب روحك الطاهرة أعمال المسلمين فى جميع أقطار الأرض .

راقب واشهد وأنت بجوار ربك وفى رحمته ورضوانه ، لترى هل هؤلاء الأحياء بعدك هم الأموات أو أنهم سيعلمون أن الله سيبدل عسرهم يسرا حين يعدون العدة ، ويطيعون الله ورسوله ويغيرون ما بأنفسهم ليغير الله ما بهم ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، ومن بعد ضعفهم قوة « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فيحيوا حياة حقة ، يرضون فيها دينهم ودنياهم .

ألا رحمة الله عليك يا إقبال . فقد كتب لك الخلود بعد أن أفنيت جسمك لدينك ولأمتك . طيب الله ثراك ، وأنزلك منازل الصديقين والشهداء ، والصالحين .

والسلام على من اتبع الهدى ..

321.82:A47iA:c.1
علوية ،محمد علي (باشا)
الاسلام والديمقراطية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01014830

American University of Beirut

321.82
A47iA

General Library

321.82
A47iA
c.1